هذا الإنسان وعالمه: رحلة أنثروبولوجية ثقافية

فهيم، حسين محمد.

هذا الإنسان، وعالمه : رحلة أنثروبولوجية ثقافية / حسين محمد فهيم . - القاهرة : المكتبة الأكاديمية ، ٢٠٠١ . - ٢٢٣ ص؛ ٢٣سم .

المؤلف

■ أنثروبولوجي مصري .

■ درس بجامعتي القاهرة والإسكندرية ، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا، بيركلي ، الولايات المتحدة الأمريكية ، عام ١٩٦٨ .

■ التحق عام ١٩٧٣ بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي بباسادينا في برنامج لدراسات ما بعد الدكتوراه، ولمدة عام .

■ عمل باحثًا بمركز البحوث بالجامعة الأمريكية وأستاذاً للأنثروبولوجيا بقسم الاجتماع بنفس الجامعة (١٩٦٣ - ١٩٧٨) .

■ اشتغل بالتدريس لسنوات طويلة في الجامعات العربية والأمريكية .

■ قضى فترة طويلة ، ولا يزال ، باحثاً ومستشاراً لهيئات التنمية الدولية .

■ نُشر له عديد من الأبحاث الأكاديمية ، التقارير الاستشارية ، والكتب في مجال التخصص باللغتين العربية والإنجليزية .

■ قام بأسفار ورحلات عديدة في أرجاء العالم .

■ له اهتمام كبير بالفن والأدب ، وقراءة الفلسفة والتاريخ .

عرض

م. أحمد مصطفى البحيرى

وهذا الكتاب عبارة عن جهد مثمر لتوضيح دور الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) فى النقاش الدائر حول القضايا والمقولات التى تشغل بال العاملين فى ميادين العلوم الاجتماعية والإنسانية المتعددة مثل الرؤى الخاصة بماهية الإنسان، ومتطلبات وجوده، وعلاقته بالكون، وغير ذلك من القضايا التى تتقاطع فيها المقولات الفلسفية مع الكشوف العلمية والتكنولوجية الحديثة بما يؤدى إليه ذلك من استحداث مفاهيم ونظريات جديدة . وهو مكتوب بطريقة تعكس حرص مؤلفه على استيعاب القارئ العام لمادته العلمية دون الإخلال بالقيم المعرفية لهذه المادة .

والكتاب يتكون من ثمان مقالات تتدرج بالقارئ من الأساسيات والمفاهيم العامة إلى القضايا الفكرية العميقة .

المقال الأول: يحمل عنوان «هذه الرحلة: دراسة وتأمل» ويتكون من عشر صفحات . ويبدأ المؤلف بصفحة يقدم فيها مبرره الأساسى للقيام بهذه الرحلة، وهذا المبرر هو حالة القلق التى يشهدها إنسان هذا العصر مما يجعله فى حاجة ماسة لوقفة تأمل وهو يرسم خطاه لولوج سنوات الألفية

الثالثة ودوافع التشاؤم تحيط به من كل جانب ، فعالم اليوم يعانى من مشكلات عديدة ويواجه أخطارا جساماً حتى اعتقد البعض أن نهاية العالم قد قربت، وأن الجنس البشرى فى طريقه للفناء . ثم يقدم المؤلف بعد ذلك ، عرضاً سريعاً لأهم ملامح المقالات السبع التالية .

المقال الثانى : «ما هى الأنثروبولوجيا ؟ ويقع فى حوالى ١٢ صفحة بخلاف الإحالات والحواشى، ويهدف المؤلف فى هذا الفصل إلى تقديم توضيح لمعنى هذا المصطلح المعرب باسم «علم الإنسان» وفى هذا السبيل يعرض تاريخاً لهذا العلم يبدأ من القرن الثامن عشر . فى هذا القرن بدأت الأنثروبولوجيا كأحد فروع المعرفة العلمية، وبدأ تدريسها فى الجامعات الألمانية، والتصقت إلى حد كبير بعلوم الأحياء والتشريح ، وكان الاهتمام حينذاك موجهًا بصفة أساسية إلى دراسة الاختلافات الجسمية بين البشر . وفى حقبة القرن التاسع عشر بدأت الأنثروبولوجيا فى التبلور بوصفها علماً توليفيًا جديدًا يجمع بين المعرفية الطبيعية بالإنسان وتنظيماته الاجتماعية بهدف تفسير علة التنوع البشرى طبيعيًا وحضاريًا . ومع بدايات القرن العشرين، وعبر عقوده شهد اصطلاح «الأنثروبولوجيا» تعاريف متعددة وفقًا لاهتمامات الباحثين أنفسهم ولطبيعة الفكر السائد . ويرى المؤلف أنه لا حد للانثروبولوجيا من حيث الزمان والمكان؛ إذ إن تقصيها يمتد ليشمل العالم بأسره والتاريخ الإنسانى برمته، إلا أن تركيز الأنثروبولوجيا كان فى البداية على المجتمعات التى سميت، مجازاً، بالمجتمعات البدائية، وتتصف بصغر الحجم والانعزالية عن العالم الخارجى، ومحدودية العلاقات الاجتماعية، وقلة التخصص المهنى، وهى مجتمعات تقع فى عمومها خارج القارة الأوربية . وعقب نهاية الحرب العالمية الثانية اتسع مجال الأنثروبولوجيا ليشمل القرى الريفية وقطاعات من المجتمعات الصناعية المعقدة التركيب نسبيًا إلى جانب دراسات الآثار ما قبل التاريخ ودراسة اللغات واللهجات المحلية، وعن علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع يشعر القارئ بأن المؤلف ينحاز إلى رأى يقول بأن الأنثروبولوجيا ليست مجرد فرع من فروع علم الاجتماع اختص بدراسة نوع معين من المجتمعات بل هى مجال متخصص فى دراسة الحياة الإنسانية فى مجملها ، بينما يدرس علم الاجتماع المؤسسات المجتمعية ووسائل تنشئة الفرد فى المجتمع .

ويشير المؤلف إلى أن اتساع مجالات الأنثروبولوجيا قد أدى إلى تفرعها لعدة تخصصات مثل الأنثروبولوجيا الطبيعية، وتختص بدراسة الجانب العضوى والحيوى للإنسان وتاريخه الطبيعى ، والأنثروبولوجيا الثقافية التى يندرج تحتها مجموعة من التخصصات المهتمة بدراسة مختلف الجوانب الثقافية لحياة الإنسان مثل : حضارات ما قبل التاريخ، ولغات الشعوب البدائية، واللهجات المحلية والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة. ويتعرض المؤلف لمصطلحين هامين هما الأثنوجرافيا والأثنولوجيا يقعان ضمن إطار الأنثروبولوجيا. والأثنوجرافيا تعنى أساسا بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم لدى مجموعة معينة أو مجتمع ما خلال فترة زمنية

محددة ، أما الأثنولوجيا فتهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الأثنوجرافية عبر الزمان والمكان بهدف الوصول إلى تصورات نظرية بخصوص مختلف النظم من حيث أصولها وتطورها . وفى نهاية هذا العرض يحذر المؤلف من أن مسميات تخصصات الأنثروبولوجيا تتنوع كما تتباين استخداماتها وأهدافها لدى الانثروبولوجيين فى البلدان المختلفة ، وعلى سبيل المثال فالأنثروبولوجيا الثقافية فى الولايات المتحدة الأمريكية يقابلها ما يعرف باسم «الأنثروبولوجيا الاجتماعية» فى إنجلترا، بينما يستخدم الفرنسيون مصطلح «أثنولوجيا» ليقابل المصطلحين السابقين. يشير المؤلف، فى نفس المقال، إلى أن الأنثروبولوجيا بدأت مسيرتها خادمة للعنصرية الغربية والمصالح الاستعمارية إلا أنها قطعت شوطًا ، بصفة خاصة ، نحو نبذ العنصرية وإدانة الهيمنة الغربية وذلك على أيد جيل صاعد من الأنثروبولوجيين من بينهم أعداد غفيرة من البلاد غير الغربية ، كما أصبحت الدعوة إلى الاحترام المتبادل بين الشعوب ونبذ الحرب والعمل على إحلال السلام وإنقاذ البيئة أحد أهم الدعاوى للأنثروبولوجيا فى الوقت الحاضر .

وعن الأنثروبولوجيا فى العالم العربى يشير المؤلف إلى أن تدريس هذا العلم فى الجامعات العربية بدأ على يد مجموعة من الأنثروبولوجيين الغربيين، وذلك فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين. وكان الاتجاه السائد هو النظر إلى هذا الفرع من المعرفة بوصفه جزءاً من علم الاجتماع يختص بالاهتمام بالمجتمعات البدائية. ومع الاتجاه الثورى الذى ساد منذ ثورة ١٩٥٢ فى مصر وشيوع الأفكار المتصلة بالقومية والوحدة ومناهضة الاستعمار لم تجد الأنثروبولوجيا (السابق ارتباطها بالاستعمار فى مرحلة معينة) مجالاً ملائماً للانتعاش والتطور . وتغير هذا الوضع إلى حد ما، فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين حين بدأت بعض الجامعات العربية فى التوسع فى تدريس مادة الأنثروبولوجيا .

ويرجع هذا التطور المحمود – فى رأى المؤلف – إلى عاملين رئيسيين هما : بروز الاهتمام بدراسة الثقافة العربية وخاصة فيما يتعلق بدراسات التراث الشعبى وتأكيد الهوية العربية ، والتطور الذى شهدته الأنثروبولوجيا التقليدية على يد عدد كبير من الأنثروبولوجيين الغربيين الذين حاولوا وضع مقولة جديدة لهذا الفرع من فروع المعرفة فى إطار الفكر التحررى لعصر ما بعد الحرب العالمية الثانية وبداية بروز العالم الثالث .

المقال الثالث بعنوان «الإنسان : هذا الكائن الفريد» ويقع فى حوالى ١٤ صفحة بخلاف الإحالات والحواشى ، وهو يتناول قضية تميز الإنسان عن الحيوان . ويشير المؤلف فى البداية إلى حقيقة أن الإنسان لا يختلف جذرياً عن الحيوانات من الناحية العضوية إلا أن إنجازاته فى مختلف المجالات تضعه فى مرتبة مختلفة ، فالإنسان يتميز بالعقلانية والقدرة على التخيل والحس الجمالى بالأشياء إلى جانب الوعى بالذات والقدرة على النطق، واستخدام اللغة ، هذا الفرق الأخير هو ما يساعد الإنسان على التفكير الرمزى . ويناقش

المؤلف قضية العلاقة بين العقل والمخ ويميل إلى القول - مستنداً إلى بعض الآراء الفلسفية - إلى أن هذه العلاقة لم يكن إدراكها تشريحياً على نحو تام، وأن المخ بالتالى لا يمكن اعتباره مصدراً للعقل . وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى مناقشة فكرة المجتمع البشرى ويشير إلى الاختلاف الجذرى بين هذا المجتمع وبين التجمعات التى تعيش فى إطارها، وبدافع غريزى فقط، بعض الحيوانات . فالإنسان ينظم حياته ويخطط لها مجتمعه على النحو الذى يلائم ظروفه وتطلعاته، وبمعنى آخر لابد أن يكون لمجتمعه هذا ثقافة، فالمجتمع والثقافة وجهان لعملة واحدة لا تستقيم الحياة الإنسانية إلا بهما. والثقافة بالمعنى الأنثروبولوجى تعنى أسلوب الحياة لمجتمع ما.

ويخلص المؤلف بعد ذلك إلى أن الإنسان نموذج فريد بين الكائنات الحية ، ثم يتعرض للمفهوم القرآنى للإنسان، ويرى أن الله قد اختص الإنسان بالعلم والبيان والعقل والتمييز حتى يصبح مؤهلاً للخلافة فى الأرض والانتشار فيها واحتمال تبعات التكليف .

وفى نهاية هذا المقال يتعرض المؤلف لقضية الاستنساخ وهو ينحاز إلى الرأى القائل بأن استنساخ الأجساد الإنسانية يمكن تحقيقه، أما استنساخ الشخوص فيبدو أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً ، فالنفس الإنسانية ليست للاستنساخ .

المقال الرابع بعنوان: «أجسادنا : نظرة بيولوجية حضارية»، ويقع فى حوالى ٢٠ صفحة بخلاف الإحالات والحواشى . وفى بداية المقال يوضح المؤلف رؤيته للجسم الإنسانى وهى رؤية تركيبية تجمع بين التعاليم الدينية والمعرفة العلمية والأفكار الفلسفية ، من هذا المنطلق ينظر المؤلف إلى الجسم البشرى باعتباره كلاً متكاملاً قوامه الجسد أو البدن الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، وأن وظيفة الإنسان فى الحياة هى العبادة والإعمار فى إطار حمل أمانة إنسانية وتبعات التكليف . وبدأ المؤلف بعد ذلك فى التطرق إلى الخصائص التشريحية للجسم البشرى ، ونظر فى البداية إلى ظاهرة اعتدال قامة الإنسان واستطلع أبعادها وآثارها على زيادة قدرة الإنسان على التعامل مع الأشياء بعد تحرير يديه وتخصيصهما للقبض على الأشياء وصناعة الأدوات ، وأيضًا استطلاع آثار تلك الظاهرة على امتداد حدود رؤية الإنسان بما لذلك من أمور مادية ومعنوية ، ثم ينتقل إلى النظر إلى يد الإنسان وإبهام الكف بالذات . وبعد أن يشيد المؤلف بروعة تكوين المخ البشرى ينتقل إلى قضية العلاقة بين الجسد والعقل، فيعرض رأى الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت القائل بالانفصال الكامل بين العقل والجسد ، ثم يعرض لبعض الآراء العلمية المناقضة لفلسفة الفصل بين الجسد والعقل، تلك الآراء التى تنبع أساساً من الطب النفسى الجسدى الذى يرى أن أساليب التفكير غالبا ما تؤثر فى الحالة الصحية للأفراد إلى حد أن الصدمات النفسية العنيفة قد تؤدى إلى الموت . وبعد أن يشير المؤلف إلى البصمة البيولوجية المتفردة لكل إنسان والتى يطلق عليها اسم : «DNA» وتمثل الشفرة الوراثية الخاصة بكل فرد ، ينتقل إلى التأمل فى بعض المعانى الرمزية لأجزاء الجسد الإنسانى التى تظهر فى بعض التعبيرات

اللغوية ، فالوجه مرآة الشخصية الفردية وحالاتها الشعورية؛ ولذلك ظهرت تعبيرات مثل «قدان ماء الوجه» بمعنى الشعور بالمهانة ، والرأس التى تقع فى قمة جسد الإنسان تستخدم للدلالة الرمزية على المركز الأعلى ، فى حين أن القدم بموقعها أسفل الجسد واتصالها بالأرض تعبر مجازًا عن الخضوع والإذلال (مثل تقبيل القدم بغية الحصول على الصفح أو الغفران من صاحبها) ، والدم له العديد من المعانى الرمزية فى مختلف الثقافات وأيضًا القلب والكبد .

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى مناقشة الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة؛ وبالذات فيما يخص الجهاز التناسلى لكل منهما، ويتناول بسرعة الخصائص التشريحية لهذين الجهازين، وذلك بغرض توضيح الحكمة من خلقها بهذه الصورة ، ويتكلم عن الاختلاف الظاهر بين جسدى الرجل والمرأة وعن القيم الجمالية للمرأة ودور هذا الاختلاف وهذه القيمة فى إثارة الرغبة لدى الطرفين فى تحقيق الاتحاد الجنسى .

يخرج المؤلف من هذا التأمل السريع فى المعانى المادية والمعنوية لتكوين الجسد الإنسانى ليؤكد أن خلق البشر على هذه الصورة يعنى تمييزًا وتفضيلاً لهم يستدعى منهم الشكر على هذه النعمة، وحسن استخدامها لما خلقت له، والمحافظة على الحياة البشرية، واتخاذ مواقف قوية تجاه عمليات القتل بغير حق . ثم يعرض المؤلف بعد ذلك لمظاهر احتفال البشر بأجسادهم ورعايتهم لها ، ويرى أن الإنسان قد اهتم بجسده حيًا وميتًا.

وينهى المؤلف مقاله الرابع بإيراد مقتطفين أحدهما من مجلة «رسالة اليونيسكو» بعنوان «الجسد نهر غير مرئى» ، وهو يتناول فكرة الصينيين واليابانيين عن جسد الإنسان، ويقع فى صفحة واحدة ، والثانى من مقالة لعالم البيولوجيا المصرى د. أحمد مستجير بعنوان: «قراءة فى كتابنا الوراثى»، ويقع فى حوالى الصفحة أيضًا .

المقال الخامس بعنوان: «نحن والكون، رؤى وقضايا »، ويقع فى حوالى عشرين صفحة بخلاف الإحالات والحواشى . وكلمة نحن هنا تشير إلى البشر ، ولكن ما هو الكون ؟ ويجيب المؤلف على هذا السؤال بما أورده عالم الفلك الأمريكى كارل ساجان كإجابة على هذا السؤال ، يقول : إن الكون هو كل ما هو موجود، وما وجد، وما سيوجد من حولنا .

يستعرض المؤلف بعد ذلك محاولات الإنسان لفهم الكون وتطورها من الفهم الأسطورى إلى الفهم المستمد من الأديان السماوية (من الإسلام بصفة أساسية) ، إلى محاولة الفهم العلمى . وعن الفهم الإسلامى للكون يورد المؤلف رأى يركز على نقطتين : الأولى أن الكون هو جملة مخلوقات ومظاهر سخرت الإنسان ، والثانية هى أن الله قد خلق الكون من مكونات متناغمة ومتناسقة الحركة فى الزمان والمكان . أما عن الكون من منظور العلم فيلجأ المؤلف إلى كارل ساجان ، مرة أخرى ، الذى يرى أن البشر يعيشون فى كون متمدد وواسع الأرجاء وقديم جدًا إلى الحد الذى لا يستطيع الإنسان تحديد مدى قدمه . ويستطرد المؤلف ليقدم

ملخصاً سريعاً لنظرية الانفجار العظيم التى قدمها العلم لتفسير نشأة الكون ، وعلى أساس هذه النظرية فإن الكون يتكون حاليًا من مجرات هى بقايا الانفجار لبيضة كونية ، وتتناثر هذه البقايا متباعدة عن بعضها بسرعات هائلة . وننتمى نحن البشر إلى مجرة تعرف باسم درب التبانة تتصف بأنها من النوع الحلزونى، ويبلغ قطرها حوالى مائة ألف سنة ضوئية، وتقع مجموعتنا الشمسية فى القرص الذى يحيط بنواة هذه المجرة . ويشير المؤلف ، بعد تقديم هذا العرض السريع ، إلى أن النظريات العلمية التى تحاول تفسير نشأة الكون ما زالت مجرد تخمينات وافتراضات ليس لها من الشواهد ما يدعو إلى الاعتقاد الجازم بها، ويؤكد أنه رغم الجهود المستمرة والناجحة لاستكشاف الفضاء خارج الكرة الأرضية فإن الكون لا يزال كتابًا صعباً يستوجب القراءة المتأنية بهدف فهم رسالته .

والنظر إلى المستقبل ، من وجهة نظر المؤلف، لابد أن يتم على أساس التزاوج بين العلم الطبيعى والإنسانيات وإنهاء القطيعة بينهما ، تلك القطيعة التى أحدثتها الأفكار التى سادت خلال القرن العشرين والقائلة بأن العلم والتكنولوجيا هما أساس التقدم الحضارى وأنهما وحدهما يشكلان أمل البشرية فى مواجهة كافة التحديات ، فى حين أن ما يواجهنا حاليًا يستلزم طرح فكر جديد لإعادة التنظيم الاجتماعى والقيمى للإنسان المعاصر لإصلاح وضع البيئة المتدهور مع السعى لدراسة وفهم كتاب الكون لصالح البشرية .

ثم يستعرض المؤلف المخاطر البيئية التى تواجه البشرية مثل تلوث الهواء بنواتج احتراق المواد الكربونية والعوامل المختلفة التى تهدد التنوع البيولوجى للكائنات الحية ، ويؤكد أنه لم يتحقق أى تقدم ملموس لتحسين أوضاع البيئة فى العالم، ويؤكد أيضاً أن الغرب يتحمل المسئولية الأكبر عن هذا التدهور ، وينتهى إلى أن الأمر يحتاج إلى ثورة فكرية تتجاوز الجهود الراهنة ، سواء كانت حكومية أو دولية ، وأن على الإنسان أن يعيد النظر بغرض إعادة تشكيل عالمه من ناحية الأولويات والمصالح حتى يمكن تحقيق التوازن البيئى مع عدم الإخلال بخطى التقدم وضمان تحقيق نوعية جيدة لحياة الأجيال القادمة .

المقال السادس بعنوان :«الذات والآخر فى دنيا البشر»، ويقع فى حوالى ٢٣ صفحة بخلاف الإحالات والحواشى . ويبدأ المؤلف هذا المقال بالإشارة إلى أن تصور الذات للآخر يحدد العلاقات بينهما ، كما يشير إلى حقيقة أنه منذ قديم الزمان حتى عصرنا هذا عبَّر الإنسان ، فى صور شتى عن إحساسه المتميز بالنسبة لجماعته وقومه وبنى جنسه كما تعصب لعنصره وثقافته مقارنة بالغير . لقد تبلورت هذه الظاهرة فى مصطلح شاع تسميته «بالعنصرية» .

ويتناول المؤلف موضوع الأعراق (السلالات البشرية) من ناحية تأثيرها على العلاقة بين الذات والآخر وموضوع الجماعات الأثنية من نفس الزاوية ويحلل الفارق بين المفهومين ، ويقدم عرضاً تاريخياً موجزاً لتطور فكرة

العنصرية فى المجتمع الغربى بدءاً من الحضارة اليونانية ثم الرومانية مروراً بفكر الكنيسة فى العصور الوسطى ، ويرى أن النظريات اليونانية والمسيحية قد تلاقتا فى تأكيد الاستعلاء العنصرى للأوربيين. ويرى المؤلف أن هذا الاستعلاء قد تدعم بالتقدم الذى حققته أوروبا فى عصر النهضة حيث إن الإنجازات التى حققتها أوربا آنذاك فى العلوم الطبيعية والفلسفية والفن قد أكدت، فى تصور الأوربيين، الاعتقاد بتفوقهم وتميزهم. كما يرى المؤلف أن نظرية داروين عن التطور الحيوى للكائنات، والقائمة على أساس المنافسة والصراع من أجل البقاء ، قد قبلت من جانب الأوربيين على نحو سريع لأنها قامت على نفس المبادئ التى قام عليها النظام الاقتصادى الرأسمالى. ومن ناحية أخرى فقد دعمت هذه النظرية الفكر العنصرى الأوربى حيث قدمت له مقولة الحتمية البيولوجية ليستخدمها فى تفسير التباين الحضارى بين الشعوب . ويناقش المؤلف فكرة الحتمية البيولوجية ويورد أفكار بعض المعارضين لها ويدعو أن تكون «الثقافة» وليس «البيولوجيا» هى المدخل الصحيح لفهم طبيعة التباين الحضارى بين الشعوب ، ولا يخفى المؤلف الحقيقة المُرة عن قارئه فيعرض كيف التوى البعض بهذه الفكرة إذ سرعان ما شاعت مقولة «الحتمية الثقافية» كبديل لمقولة «الحتمية البيولوجية» (الاعتراض على كلمة «حتمية» مهما أعقبها من كلمات أو جمل). ثم ظهر تعبير البيولوجيا الاجتماعية، ودعوة أصحابه الأساسية هى أن كل مظاهر الحضارة والسلوك البشرى مثل الدين والأخلاق والحرب والتعاون والتنافس قد وضعت شفرتها فى جينات الأفراد وتم تشكيلها ، فى المجتمع ، بواسطة عملية الانتخاب الطبيعى . ويرى المؤلف أن البيولوجيا الاجتماعية ، مثلها فى ذلك مثل الداروينيه قد أضفت الشرعية على مجتمع طبقى محنك الإدارة ، كما وضعت سلاحاً قوياً فى أيدي واضعى الأيديولوجيات ممن يحمون نظماً اجتماعية قائمة على السوق الحرة وشرعية التنافس والربح دونما حدود باعتبار أن كل هذه المفاهيم مغروسة فى جينات البشر ولا مفر منها، مما ساعد البعض على ادعاء بأن النظام الرأسمالى الديمقراطى يشكل المرحلة الأخيرة من التطور الأيدولوجى للجنس البشرى أو كما قيل «نهاية التاريخ». وهكذا يرى المؤلف أن فكرة الأساس البيولوجى للتباين بين الجماعات والشعوب قد ارتدت ثوباً أحدث، خاطته لها الدراسات فى عالم الجينات . إلا أنه يرى أن الحماس والاندفاع فى هذا الاتجاه قابلته آراء أخرى قاومته وسخفته، ورأت أن الاختلافات بين الأفراد والجماعات لا تفسر إلا فى ضوء الظروف البيئية والثقافية .

وقرب نهاية هذا الفصل يعرض المؤلف الاتجاه الجديد الذى أطلق عليه اسم «المعلوماتية» ، والذى يرفع شعار أن البقاء لحائزى المعلومات الأفضل ، بمعنى أن السبق فى حيازة المعلومات وتطوير تقنية استخدامها هو محور التطور الحضارى للإنسان وأساس النمو الاقتصادى ، وبالتالى فإن الاندماجات بين المؤسسات التجارية والصناعية هو باب زيادة القدرة التنافسية لتلك المؤسسات الأمر الذى يضمن بقائها وزيادة أرباحها ، وهكذا ارتبطت المعلوماتية بالعولمه. ويرى المؤلف فى نهاية هذا المقال

أن العنصرية لا تريد أن تختفى من الفكر الغربى بل هى تتحول من صورة إلى أخرى ، وأن الإمبريالية الغربية والعولمة هما وجهان لعملة واحدة هى العنصرية .

المقال السابع بعنوان :«المرأة فى عالم متغير (دراسة أولية)» ويقع فى حوالى ٢٤ صفحة بخلاف الإحالات والحواشى . فى بداية هذا المقال يقرر المؤلف أن هناك اختلافات بين الرجال والنساء لا مناص من الاعتراف بها ، فلكل جنس منهما جسمية معينة ، كما أن لكل منهما ثقافته المكتسبة الخاصة ، الا أن هذه الثنائية لا تلغى مطلقاً واقع اشتراكهما معاً فى كل أمور الحياة ، ولا تلغى أبداً وحدة مهمتهما فى الانتشار والإعمار . وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى تقديم إطلالة تاريخية موجزة جداً عن مكانة المرأة عبر العصور ، وتستغرق هذه الإطلالة أغلب صفحات هذا المقال ، وينتقل المؤلف باستمرار بين الشرق والغرب ليعرض أهم الاختلافات فى نظريات المجتمعات للمرأة . وعندما يبدأ بالشرق فهو يشير ، وبسرعة ، إلى الأهمية التى حازتها المرأة فى حضارات الشرق القديمة، فقد عُبدت إلهات كثيرة مثلت الأم والأرض رمز الخصب، مثل عشتار عند البابليين وإيزيس عند المصريين، كما تغنت شعوب تلك الحضارات بالمرأة ونسجت حولها الملاحم والأساطير والابتهالات التى يلاحظ فيها الارتباط بين المرأة والأرض مصدر الرزق المثمر ، وقد أبرز الفن المصرى القديم موضوع رمزية الصلة بين المرأة والأرض والخصوبة كما أجاد التعبير عن المرأة بشكل فائق أكد احترامه لجمالها ولدورها فى الحياة . ثم ينتقل المؤلف إلى الحضارة اليونانية التى يرى أنها قد نظرت للمرأة بطريقة عكست حقيقة أن هذه الحضارة قد خلقت مجتمعاً طبقياً وقف الرجل الحر على قمته وإلى الأسفل منه تأتى باقى عناصر المجتمع ومن ضمنها المرأة . لقد حقَر الفيلسوف اليونانى الشهير سقراط ، من شأن المرأة تحقيراً كبيراً ، أما أفلاطون فقد وضع المرأة فى الحريم حيث مجتمعها المتدنى فى المجتمع الأثينى . ولم يتغير وضع المرأة خلال الإمبراطورية الرومانية ، أما فى العصور الوسطى فقد رسَّخت الكنيسة المسيحية والديانة اليهودية هذه النظرة المتدنية للمرأة بحجة أنها سبب الخطيئة الأولى وطرد آدم من الجنة وإنها ستظل إلى الأبد أداة للشيطان تدفع الرجال دوماً إلى ارتكاب المعاصى . وعندما يعود المؤلف بنا إلى الشرق يكون حديثه عن مكانة المرأة فى خلال حقبة الحضارة المزدهرة للمجتمع العربى الإسلامى فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجريين، ويرى أن الفكر الرسمى عن المرأة فى هذه الفترة يتمثل فيما قدمه أهل الفقه استناداً إلى التعاليم الإسلامية واجتهادات التفسير الشخصية، وأنه بموازاة هذا الفكر الرسمى ظهر فكر شعبى عبر عن نفسه بالأمثال، والسير الشعبية، وأدب السخرية، والضحك مثل نوادر جحا، وقصص ألف ليلة وليلة أيضاً ، ويرى المؤلف أن نظرة الفكر الشعبى بعيدة كل البعد عن كراهية المرأة واحتقارها . ثم يقارن هذه النظرة بنظرة الرجل الغربى للمرأة فى نفس الفترة التاريخية حيث أُحرقت بتهمة السحر وأُجبرت على ارتداء حزام العفة فى غياب زوجها .

عندما هوى نجم المشرق العربى، ونهض الغرب، وعم به نور الفكر فيما أُطلق عليه «عصر النهضة» ، بدأت صورة المرأة فى العقلية الأوربية تتحسن تدريجياً . ولقد كان للنهضة الإيطالية دورٌ فى تدعيم هذا الاتجاه ، كما كان للثورة الفرنسية دور إيجابي أيضا . وفى القرن الثامن عشر تأثرت الحياة الفكرية باتجاه جديد يعى أهمية تطبيق القوانين العلمية بصياغاتها الرياضية بدلاً من الاكتفاء بالرؤية الفلسفية للناس والعالم. وكان للتقدم التقنى دور كبير فى الارتقاء بصناعة الآلات، فلم يعد العمل يعتمد (فقط) على القوة العضلية للرجل كما كان الحال قديماً . ورغم أن كافة العوامل السابقة كان لها دور إيجابي فى تغير النظرة إلى المرأة، فإن الموقف الفلسفى العام تجاهها ظل على حاله من حيث الكراهية والتحقير، ويستشهد المؤلف على ذلك بآراء الفيلسوفين الشهيرين شوبينهور ونيتشه ، ولكن المؤلف يذكر أيضاً جون ستيوارت ميل أشهر فلاسفة القرن، الذى تبنى هو وزوجته قضية تحسين وضع المرأة فى المجتمع الإنجليزي . ويرى المؤلف انه بقدوم القرن العشرين، وخلال نصفه الأول بالذات، وقعت أحداث جسام كان لها تأثيرها البالغ على نظرة المجتمع الأوربى للمرأة، فقد شهد هذا النصف حربين عالميتين كما حقق العلم والتقنية طفرات تقدمية هائلة . ولقد قامت النساء بأعمال هامة فى ميادين القتال، وشاركت الرجال فى أهوال الحرب ، كما حلت محلهم فى ميادين العمل المدنية ، وقد ساعدت الطفرات التقنية على سهولة إحلال الرجال بالنساء فى أغلب الأعمال . وبرزت أسماء نسوية كأديبات ومفكرات وعالمات بارزات، وانطلقت أصوات نسائية فى أوربا وأمريكا تدعو إلى تحرير المرأة من قهر الرجال لها . وعندما أراد العالم ترتيب شئونه بعد الحرب العالمية الثانية وجد أن الطريق إلى ذلك يمر أولاً بمحطة خلق فلسفة جديدة مخالفة عما كان سائداً من مقولات حول الإنسان والكون و فلسفة تدين السلوكيات العداونية الناتجة عن الصراعات العرقية والسياسات العنصرية ، وفى إطار هذا التوجه الفكرى الجديد تقوضت كثير من الحجج التى كانت تدعم مقولة القوة الذكرية مقابل الضعف الأنثوى، وظهر العديد من الحركات المؤيدة للنهوض بالمرأة، وإعادة صياغة العلاقة بينها وبين الرجل.

يشير المؤلف ، بعد ذلك ، وباختصار ، إلى اختلاف النظرة الفلسفية إلى المرأة عن النظرة الأنثروبولوجيه إليها ، فالفكر الفلسفى هو فكر مجرد ، أما الفكر الأنثروبولوجي فيتناول الإنسان فى واقعه الحياتى ومن منظور شمولى ، وهو يرى أن النظرة الأنثروبولوجية للمرأة قد ساهمت فى تحقيق معرفة أعمق بأحوالها ووضعها فى العالم المتغير دونما كراهية أو تحيز على عكس ما فعلته المعرفة الفلسفية المجردة التى سادت حتى نهاية القرن التاسع عشر، والتى ابتعدت عن المرأة ربما بسبب الاعتقاد بأنها أحد عناصر العالم الحسى الذى ينبغى الحذر منه، والبعد عن مؤثراته .

فى الجزء الأخير من هذا المقال يتعرض المؤلف إلى الفروق الكثيرة بين وضع النساء فى المجتمعات الغربية المتقدمة، ووضعهن فى المجتمعات

الفقيرة الواقعة فى شرق العالم وجنوبه . ويقرر أن قهر المرأة من قبل المجتمع الذكرى فى بلادنا العربية يمثل أمرًا يجب التعامل معه بنقد عقل كل من الرجل والمرأة.

المقال الثامن، والأخير فى هذا الكتاب بعنوان : «القرن العشرين والعصر الجديد (النهاية والبداية)»، ويعرضه المؤلف على هيئة حوار بينه وبين قارئ مفترض ويستغرق حوالى ٣٣ صفحة بخلاف الإحالات والحواشى . والغرض الأساسى لهذا الحوار هو عرض رؤية المؤلف عن العالم فى نهاية القرن العشرين وعن احتمالات المستقبل . ويبدأ المؤلف بعرض لتطور وعى الإنسان بالزمن وتقسيمه إلى حقب تاريخية ، ودخول المفاهيم العلمية إليه . ويتكلم بعد ذلك عن القرن العشرين ويستعرض أهم ملامحه التى ترشحه لأن يتم اعتباره أحد أيدولوجيات متعددة ومتناقضة ، وشهد انعكاسات وتأثيرات مفهوم «التقدم» فى الفكر الغربى على التدهور البيئى العالمى، ومن ناحية أخرى فقد شهد هذا القرن تقدماً علمياً وتقنياً رهيباً ظهرت آثاره النافعة وآثاره الضارة أيضاً .

عن مستشرفى المستقبل يقرر المؤلف أنهم ينقسمون إلى متفائلين ومتشائمين ، ويرى المتفائلون أن التاريخ الإنسانى قد أكد دائماً أن العقل البشرى قادر على مواجهة التحديات وإيجاد الحلول المناسبة لأكثر المشاكل تعقيداً سواء باستخدام العلم والمعرفة التقنية أو عن طريق إعادة تشكيل النظم الإجتماعية بما يتلائم مع أى مستجدات ، بينما يرى المتشائمون أن التاريخ يبرهن على أن الآمال الكبار كانت تخيب دائماً ، فالثورة الفرنسية ، على سبيل المثال ، أنهت عصر الملكية، وتوقع الفرنسيون أن تاتى بالسيادة والحرية والعدل والمساواة ، إلا أن هذه الآمال سرعان ما خابت وعاش الفرنسيون بعد ثورتهم فترة طويلة من الرعب وإسالة الدماء، تلتها حروب نابليون بما جلبته من خراب ، كما أن القرن العشرين نفسه يقدم مثالاً هاماً على خيبة الآمال، فبعد ما تحقق فى القرن التاسع عشر من تقدم علمى واقتصادى وحضارى توقع الجميع أن يأتى القرن العشرين بفترة رخاء وهدوء تُجنى فيها ثمار ذلك التقدم فإذا بهذا القرن يأتى بالحروب واللعنات .

يتطرق المؤلف بعد ذلك لفكرة «المجتمع الحلم»، ويعرض ملخصًا لرؤية المفكر السويدى رولف جينسين، الذى يستعرض تطور المجتمعات الإنسانية من قديم الزمان حيث تحولت من مجتمعات صيد وجمع إلى مجتمعات زراعة ، ثم فى منتصف القرن الثامن عشر تقريباً بدأت معالم المجتمع الصناعى فى الظهور وذلك باستخدام البخار كطاقة لتشغيل الآلات ، وبعد ذلك بقرنيين شهد العالم الانتقال من عصر الآلة إلى عصر المعلومة حيث يفوز الأكثر قدرة على جمع المعلومات، ويرى جينسين أن هذا العصر سوف ينتهى ليحل محله ما أطلق عليه اسم «المجتمع الحلم» الذى يتوقع جينسين أن يبرز إلى الوجود خلال القرن الواحد والعشرين. فى هذا المجتمع سوف يتحقق التقدم بدون الإساءة للبيئة ، بل على العكس، فسوف يصبح أهم أهداف التقدم أن تسترد البيئة عافيتها وتحظى الطبيعة بالقدسية والجلالة فتنمو الغابات من جديد، وتعم الخضرة،

ويعود النقاء للماء والصفاء للهواء . كما سوف تتغير مفاهيم العمل وأساليب شغل أوقات الفراغ ، وتتسع قنوات الاتصال بين الأفراد والجماعات والشعوب. أما السبيل إلى تحقيق هذا الحلم فهو اختفاء القيم المادية ليحل محلها قيم التعاون والتآخى والعودة إلى الإيمان بالمقدسات، كما يتطلب هذا المجتمع الحلم أن يتولى أموره حكام ومسئولون ذوو مشاعر طيبة. ولا يخفى مؤلفنا اختلافه مع هذه الأفكار الوردية فهو يرى أن مجتمع المعلومات سوف يستمر وسوف يلتقى مع مجتمع عصر جديد هو عصر البيوتكنولوجى فيظهر الهجين المعلوماتى البيوتكنولوجى .

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى التعرض للمشكلة السكانية، والأبعاد الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والعلمية، والدينية لها . ويرى المؤلف ضرورة الفصل بين الجنس والتناسل، والجنس قد أصبح أو يجب أن يصبح مسألة عادية ومشروعة كجزء من أساسيات الصحة الوقائية والطب الجسدى والنفسى، أما التناسل فيجب العمل على ضبطه، وهو أمر يتكفل به التقدم العلمى فى هذا المجال ، ويرى أيضاً أن العالم العربى لا يمكن استثنائه من هذا الاتجاه الكاسح ، إلا أن الأمور يجب أن يُخطط لها بحذر وهدوء خشية حدوث رد فعل قد يقوض هذا الاتجاه التحررى فى النظر إلى الجنس .

عن العولمه وصراع الحضارات والأحكام الجازمة عن المستقبل التى أصدرها بعض مفكرى الغرب الذين أسكرتهم نشوة انتصاراته، يخصص المؤلف ما بقى من صفحات هذا المقال ، وهو يرفض الطبيعة الحتمية لهذه الأفكار ، فالعولمة ليست هى السبيل الوحيد ، ونهاية التاريخ أمر لم ولن يأتى أبداً ، وصراع الحضارات ليس الطريق الوحيد أمام تفاعل المجتمعات والحضارات . وهو يعرض أفكاراً أخرى، فالعولمة تقف أمامها رغبة الإنسان الأزلية فى أن يكون له لونه الخاص، و صراع الحضارات من الممكن أن يحل محله حوار بناء ، أما فكرة نهاية التاريخ فلا تجد الآن من يسلم بها تسليماً تاماً ، حتى صاحبها .

فى النهاية نقول إن هذا الكتاب عبارة عن رحلة ممتعة وشاقة تتطلب جهداً من القارئ ، يبدؤها فى المقالة الأخيرة ، ولعله بذلك يريد أن يقول للقارئ إن المعرفة هى السبيل إلى تحقيق الانتقال من اليأس إلى الرجاء .